توظيف المـوروث الثقافي

العربي بنجلون *

يقتضي التعامل مع الموروث أن نفرق بين ما هو نقلي وما هو عقلي؛ وخصوصًا إذا كان هذا التعاملُ يمسُّ الإصدارات المُوجّهة للطفل، ومجلّاته وبرامجه بالذات. فالأول، أي النقلي، وهو السائد في الساحة الثقافية حاليًا، سُكونيٌّ لا يتطور، يُلقّنُ للطفل بلغته العتيقة، وبعالمه المعرفيّ المُتجاوز، كما أنتجه القدماء، دون أدنى تصرف أو اجتهاد أو تحوير أو إضافة، تراعي سيرورة التطور الفكري والمعرفي والأدبي عبر العُصور. ولنا خيرُ مثالٍ على ذلك ما يُنشر في كثيرٍ من مواقع الشّبكة العنكبوتية. وأمّا الثاني، فيتميز بقابليّة التفاعل مع الحاضر والمستقبل، والتأثير فيه إيجابًا، والتأثر بالثورة العلمية والمعرفية الهائلة، المُتواترة بسرعة فائقة؛ إذ يدّخر مخزونًا ثقافيًا وعلميًا وأدبيًا ولغويًا غنيًا، فضلًا عن طاقةٍ مُتميّزة من الخيال.

إنّ استغلال الموروث (العقلي) في صياغةٍ (حديثةٍ) لنُصوصٍ قصصيةٍ وروائيةٍ ومسرحيةٍ وشعريةٍ، ولألعابٍ وألغازٍ، وسواها من الموادّ المُكوّنة للكتابة الخاصة بالطفل، يسعى إلى:

أوّلًا– تقوية شخصية الطفل، وتعزيز الثقة بنفسه، ومُحيطه الاجتماعي، باعتبار أنّ الموروث، سواءً أكان رسميًا أم شعبيًا، لم يأت من فراغ، وإنّما هو تراكم كمّي وكيفي لتجارب حياتيةٍ وفكريةٍ حيةٍ، لأُممٍ وشعوب متعاقبة، مهما تباعدت أو تقاربت المسافاتُ الزمنية والمكانية بينها.

ثانيًا – صيانة هُويَّته من الاندثار في زمن العولمة، ومُقوّماته الذاتية من التلاشي أمام التيارات التغريبية، دون انكفاء أو تقوقع، يعزلانه عن العالم، ويشُلّانه عن مواكبة العصر.

ثالثًا – خلقُ روح المُواطنة الحقّة لدى الطفل، وغرسُ حُبّ الوطن والأرض ورجالاتهما، منذ طفولته الأولى، حتى ينشأ في بيئة سليمة، يشملها الوُدُّ والتآلفُ والتّساكُنُ والتعايش.

* ناقد وكاتب أطفال – المغرب.

رابعًا – ترسيخُ العناصر الإنسانية الإيجابية، التي يزخر بها هـذا الموروث، وما خلّفتهُ من عُمران، وحضارات وإنجازات علمية، وسلوكات نبيلة.

خامسًا – إبرازُ الصُّور التراثية المُشرقة في المجالات كافةً (لا ينبغي أن تقتصر على الأخلاقية فقط) لتحتذيها ناشئتُنا، وتتمثلها في حياتها وعلاقاتها مع الآخرين.

سادسًا – إنّ بناء ثقافة المُواطنة الحقيقية يعتمد على الذّكر والأُنثى معًا، وأحيانًا يكون الذّكرُ في الموروث بطلًا، يذودُ عن الوطن، ويخوض معارك الحياة الحاسمة، ولا تأتي الأنثى إلّا ضحيّة، أو أُمًا حنونًا تُؤدّي دورًا هامشيًا، أو زوجةً ثانية، تُدبّرُ الحيل والمكائد لأبناء زوجها، أو فتاةً جميلةً يتيمةً، تنتظر شابًا غنيًا يُنقذُها من الفقر، بدل أن تفكر وتعمل وتجدّ مثلهُ.

وبهذه الطريقة، نُكرّسُ في الذّهنيّة الطّفليّة نموذجًا أُنثويًا هشًا؛ أي ننتقصُ من شخصية الأُنثى، الّتي أصبحت في عصرنا الحاضر شريكة الذّكر في التفكير والتدبير والتسيير، ومُساهمة فاعلةً في شُئون المُجتمع، لا (ذيليّة) تابعةً له، تخدمه وتُشبع نزواته.

سابعًا – إغناءُ الموروث بالتقنيات الحديثة لثقافة الطفل، بما لا يتعارض ويتناقض مع عقيدتنا السّمحاء، وقيمنا الرُّوحية الرّفيعة، وثوابتنا ورُموزنا الوطنية، الّتي أصبح العالمُ العربيُّ – وحتّى الغربيُّ نفسه – يُعاني بفُقدانها كُلّ المظاهر العنيفة.

ثامنًا – إنّ الموروث العربيّ أو الغربيّ، ليس خُصوصيًا أو إقليميًا ضيّقًا، يقتصر علينا دون الآخر، أو ينحصر في الغير دوننا؛ لأن الإرث الثقافيّ والحضاريّ هو بمثابة نهرٍ مشترك، يستقي منه البشرُ جميعُهُم. فحينما نُمعنُ النّظر – على سبيل المثال – في كتاب «الحيوان» لأبي عُثمان الجاحظ، نجد غالبية نصوصه مُقتبسة من كتاب «الحيوان» لأرسطو. وهذا ينطبق على «الكوميديا الإلهية» لدانتي، المُقتبسة من «رسالة الغُفران» لأبي العلاء المعرّي. و«ألف ليلة وليلة» كانت – كما يقول مارسيل بروست نفسُه – النُّطفة التي لولاها ما كانت روايته الرائعة «البحث عن الزمن المفقود» و«رسالة حيٍّ بن يقظان» للفيلسوف الأندلُسي ابن طفيلٍ، أوحت للكاتب (دانييل ديفو) برحلة «روبنسون كروزو ومغامراتهُ المُدهشةُ»، التي لخّصها للفتيان الكاتبُ العربيُّ الكبير كامل كيلاني في سلسلة "أشهر القصص"، كما ترجمها الكاتب مختار السويفي في سلسلة "روائع الأدب العالمي للناشئين"، التي يُصدرها مهرجان القراءة للجميع بمصر... وهذا يدل على تفاعُلٍ دائريٍّ، وتطوُّرٍ جدليٍّ بين الثقافات والحضارات الإنسانية جمعاء.

تاسعًا – العناية بالموروث الشّفهي، كعامل فاعل في تربية الطفل وتنشئته. ويتجلّى فى

الأهازيج الشعبية والأمثال والحكايات والنوادر والأحاجي، وفي العادات المُتوارثة، والتقاليد المُتداولة، والأنماط التعبيرية والتشكيلية، التي ترمي جميعُها إلى التحلّي بالقيم الاجتماعية، من تعاون وتضامُن وتساكُن، وإلى الشعور بالأصالة والانتماء، والإحساس بالذات، وإعمال العقل...!

عاشرًا – توظيف اللغة العربية بما يُلائم الفئة العُمرية المُستهدفة، دون تقعير، أو تعقيد، أو إغراق في الغموض؛ كي لا نُنفّر الطفل من المُطالعة، ونُكرّهه في موروثه.

أحد عشر– التّركيزُ على عُنصر (الخيال) الذي يُشكّل العمود الفقريّ للعديد من الأعمال التراثية، مثل «ألف ليلة وليلة» و«كليلة ودمنة» و«تداعي الحيوان على الإنسان» لإخوان الصّفا، و«آراءُ أهل المدينة الفاضلة» للفيلسوف أبي نصرٍ مُحمّدٍ الفارابي، وقصص عنترة، وأبي زيدٍ الهلالي، وسيفٍ بن ذي يزن، و«قصص العرب» وسواها كثير.. فلطالما نتج عن عملية التّخيُّل، مُخترعاتٌ ومكتشفاتٌ وإبداعات إنسانية في كل الحُقول. ولولا الخيال، لما حققت الإنسانية هذا التقدم والرقي المُذهلين، ولما تخلّصت من شرنقة الجهل والتخلف..!

ولعل سرّ التطور العلمي والتكنولوچـي لأمريكا وأوروبا واليابان والصين، يكمُنُ في استغلال عنصر الخيال، الذي يسري في موروثها سريان الدّم في عروق الجسم، وإلّا لماذا هذا الاحتفاء الكبير بسلسلة «هاري بوتر» في أنحاء العالم الأوروبي والأمريكي؟!.. أليس لأنه يُحلّق بالطفل في سماء الخيال، ويُقحمه في مواقف فنطازيةٍ، تشحذُ ذهنه وذكاءه، وتُحفّز عقله على التفكير والتخييل؟!.. وبالتالي؛ فإنه يُيسّر له العملية التّعلُّمية؛ حيث يستوعب بسهولةٍ الموادّ العلميّة، التي يشكو أبناؤنا من صعوبة فهمها. فانعدامُ أو انحسارُ الخيال عند أطفالنا المُتمدرسين، الذين لا يُبالون بالموروث، هو من العوامل القوية في تخلُّف التعليم بالعالم العربي. وأذكر يومًا دعتني فيه مدرسةُ (چورچ بيزي) بالدار البيضاء، الخاصةُ بأبناء الجالية الفرنسية لزيارتها، فوجدتُ تلاميذها، وأنا أنتقل من فصلٍ إلى آخر، يطالعون قصة «حذاء الطُّنبوري» و«السندباد البحري والبرّي» و«عباسٍ بن فرناس» باللغة العربية. بل إن عناوين بعض الكتب لم تعُد مُستساغةً عندنا، من مثل «جولة الشباب في رحاب الآداب» ولما سألت مُرافقي عن سرّ هذا (الحُب الكبير) للموروث العربي، وتراكيبه اللغوية القديمة، أجابني بأننا نتوفّر على ثروات، أهمّ من النّفط، ولا نستغلها، أو نعلمُ بها حتّى، وهي ما يزخرُ به موروثنا من خيال جامح، وسلوكات ذكية، ومهارات دقيقة، وقيم إنسانية رفيعة، مُكوّنةٍ لشخصية الإنسان، وهي لا تبلى، صالحة لكل زمان ومكان..!

وإذا كان العالمُ صامويل چونسون يقول: «إننا نشتري المستقبل بحاضرنا» فنحن لا نستطيع

أن نبني الحاضر والمستقبل إلّا على لبنات الماضي، الذي يتجسد في الموروث الروحي والثقافي والمعرفي والعلمي والأدبي والفني.

يقول الكاتب جبرائيل مارسيل:

ـ «نحنُ ماضينا الذي يحيا فينا»!

وبطبيعة الحال، لا ينبغي أن يبقى هذا الماضي ساكنًا جامدًا، نلقنه الطفل كما ورثناه، دون تشذيب وتهذيب، وإضافات غنية، تُغذّيه وتُنمّيه ليُساير تطور العصر. وهذا ما يُطلق عليه (الحداثة) لأن مُنظّريها الأوائل يعتبرونها حبلًا سُرّيًا بين الماضي والحاضر، تستقي من التراث كل ما يفيد في تجديد الحياة..!

انطلاقًا من هذه الرؤية، يُمكننا أن نقول بلا تحفُّظ:

ـ إن تحضير الموروث في (طبق) سائغٍ ليتناولهُ الطفلُ؛ أي توظيفه في الكتابة، يتطلب جُملة من الشروط الضرورية، التي من دونها سنجني على (فلذات أكبادنا التي تمشي على الأرض) ونُكوّنُ جيلًا معوّقًا، غير قادرٍ على الحياة الطبيعية، بله المساهمة في الابتكار والإبداع والاختراع، ونُلخّصُها فيما يلي:

ـ إذا كان التعليم الناجح يقوم على دعائم أساسيةٍ، من بينها (المُدرس الكُفء) فإن الكتابة للطفل، وبالأخص، التي تنهلُ من الموروث، تفرض أن يكون صاحبها متمكنًا من الأدوات الفنية لصياغته؛ لا أن يكون مثل (حطاب الليل) ينقل للقارئ الصغير كلّ ما يعثرُ عليه من أعمال في كتب التراث، ويُلقّمُهُ إيّاهُ، بلا صياغةٍ مناسبةٍ لسنّه، وخصائصه الفكرية واللغوية. وهنا نستشهد بقولة الجاحظ الذائعة، وخلاصتها أن المعاني مطروحة في الأسواق، وعلى قارعة الطريق أمام الغادي والرائح، في وُسع أيّ كاتبٍ أن يلتقطها، ويختار منها الجيّد إن أراد. لكن، ما يُميّز كاتبًا عن آخر – وأعني كاتب الصغار بالذات والصفات، الذي يهُمُّنا – هو إلمامُهُ بتضاريس شخصية الطفل في مراحلها المتداخلة والمتماسكة، والمُتدرّجة من مرحلة الطفولة المُبكّرة، إلى المرحلة المتوسطة، فالطفولة المتأخرة أو الواقعية الثانية، ثُمّ مرحلة اليقظة، أو المغامرة والمخاطرة، وأخيرًا مرحلة المراهقة.

ولكلٍّ من هذه المراحل خصائصُ تُميّزُها من نواحي النمو المختلفة (جسمية، عقلية، نفسية، انفعالية، سلوكية، اجتماعية..) فما يقدمه الكاتب للطفل في هذه المرحلة، لا يصلح لآخر في المرحلة التي تليها، وهكذا..!

إذن، من الضروري أن يُدرك الكاتبُ هذه الأطوار العمرية ومكوناتها، ولابد له من غربلةٍ دقيقة لما يوظفه من موروثات في أعماله الأدبية.

فالكثير منها يتضمّن أفكارًا خطأً، تُضرُّ بسلوك الطفل. مثلًا، هناك من حوّل مقامات بديع الزّمان الهمذاني إلى قصص ومسرحيات للأطفال، لكنه ترك نهاياتها كما هي: يحتالُ البطلُ على البسطاء من الناس، ويستغل طيبوبتهُم وعرقهُم، وفي النهاية، يفلتُ من العقاب!!

والطفل بالمناسبة (كائنٌ إسفنجيٌّ) يلتقط ما يراه ويسمعه ويقرؤه، دون فحصٍ أو تمحيصٍ، بل يُحاول أن يُجرّبهُ ويتمثله؛ لأنه ينظر إلى الكاتب بـ (عينٍ ملؤها الرّضى والثقة) ويعتبر ما يكتبه (صحيحًا نافعًا) وأحيانًا لا يفرق بين الرمز والحقيقة. بينما نجد في رحلة ابن بطوطة، كمثال، مجموعةً من القصص الواقعية، أبطالُها أطفال، وتحمل مبادئ وقيمًا تربوية واجتماعية عالية، استعان بها علماء الاجتماع، ورجال القانون والحُقوقيون والمُشرّعون الغربيون في صياغة حقوق الطفل العالمية، لكن، ويا للأسف الشديد، لم نستغلّها، نحنُ العرب، لحدّ الآن..!

وحتى لو أن الكاتب تحرّى الحيطة والحذر، فاختار الموروث الملائم، شكلًا ومضمونًا، لشخصية الطفل، سيبقى عليه أن يُغنيهُ بعطائه الشخصي، كيلا يظل عملُهُ مُجرّد نقلٍ واجترارٍ، يحقُّ فيه القولُ «بضاعتنا رُدّت إلينا".

وكنموذج للموروث الذي لا يظل مُغلقًا، وإنّما ينفتح على الجديد في العلم والثقافة والفكر، تحضُرُني قصةُ كاتب مغربي، مُعنونة بـ «جميلة جدًا، ولكن!» مزج فيها بين الخيالي والعلمي، وهما عالمان أقسما ألّا يلتقيا بالمرة. لكنه استطاع بتجربته الطويلة في الكتابة للأطفال، أن يتفوّق في نسج أحداثها، وحبك موضوعها، بشهادة قرّائه الصغار.

والقصة هي أن ملكًا لبلاد الأقزام، أنجب بنتًا عملاقة، يمتد طولُها إلى السماء؛ لدرجة أنّها كانت في سنوات الجفاف تعصر السحابة لتسقي أراضي الفلاحين، وفي عيد الأضحى تشوي قُضبان الكباب في الشمس (توفيرًا للطاقة). ولم يستطع أحدٌ أن ينقص من طولها، غير فتًى فقيرٍ (وهُنا سينتقلُ إلى العلمي، أو سيُعلمنُ الخيالي) عندما أقنع الملك بأن الحلّ الوحيد لذلك، هو أن يُجري لها عمليةً جراحيةً، فينقُص من (چينات) طولها، كي تصير قامتها معتدلة. وفي الوقت نفسه، يُعمّمُ التجربة على أفراد الشعب، فينقصُ من چينات قصرهم، وبقية القصة تعرفونها.. ويقول هذا الكاتب إن طفلًا بإحدى الإعداديات، هو الذي أوحى إليه بالحلّ أو البديل، أو النهاية المُضيئة!

وهكذا يتبين أن الكاتب الحاذق يُحافظ على الموروث، ويُثريه بما يُستجدُّ في العالم من نظريات علمية؛ ليُعوّد الطفل على التفكير المنطقي، أولًا، وليُربّيهُ على تفعيل عنصر الخيال، فيصبح واقعًا، ثانيًا. وهناك من الباحثين التربويين من يعارض هذه النظرية، فيُؤثر ألّا تُغيّر صبغة القصة، أو يُضاف إليها أي شيء، كيلا تفقد طابعها التراثي.

وعلى الكاتب أن يدرك أن الشخصيات المُفزعة، كالغيلان والعفاريت والمردة والأشباح، والقبائل المُتوحشة، التي تطهو الأطفال في القُدور الفخّارية والطّناجر النُّحاسية، وتُقدّمُهُم في أطباق ذهبية طعامًا شهيًا للآكلين.. هذه الشخصيات المُرهبة المُرعبة بصفتها تجسيدًا للشّر والهمجية، وما تُخلفُه من مظاهر عنيفةٍ، هي سيفٌ ذو حدّين، إذا لم يُحسن توجيهها توجيهًا إيجابيًا، فإنّها ستؤدي وظائف عكسية، بالنسبة إلى صحّة الطفل النفسية والعقلية.

الكاتب الحقيقي هو من يغرس في طفلنا شجرة الأمل والتفاؤل والخير والتسامح، والتفكير الجيد في تحسين شُروط الحياة، لا من يُنشئُ جيلًا مرعوبًا، لا يستطيعُ العيش، والتأقلم مع الآخرين. علمًا بأن دولًا متقدمة ممّن تُعنى بموروثها، وبثقافة الطفل عامة، ألغت كلّ الألفاظ والعبارات والجُمل، فضلًا عن الموضوعات والقضايا والمشاهد، الدّالّة على الخوف والرّهبة والرُّعب، والموت كذلك، ولو كان طبيعيًا؛ لأنه يهُزُّ ثقة الطفل في أسرته ومُحيطه الاجتماعي، اللذين يحتمي بهما.

كما حذفت من قاموسها المفردات القاسية، لما تحملُهُ من شُحنات انفعالية، مثل: القتل والبطش والفتك والضرب والقذف والاعتداء، وما شاكلها.. فنفسية الصغير هشّة، تتأثر سلبًا بها، ولا تتحمّلُ قراءة كتب أو مجلات الخوف، التي تُغذّي المُيول العُدوانية، دون أن ننسى أن الطفل الذي تربّى على ثقافة العنف والتعصُّب، سيجنحُ نحو المواقف المُتطرفة، ونحتفظ بعشرات الأمثلة من الواقع على ذلك.

وإذا كانت المجلة تكتسي صبغة خاصة، لا تتوافر في الكتاب؛ أي أن هذا الأخير يضُمُّ موضوعًا واحدًا، وجنسًا أدبيًا مُعيّنًا، كالقصة أو المسرحية أو الشعر.. فالمجلة تحتضن كلّ هذه الأجناس، بالإضافة إلى المقالة والمُسابقة والأنشطة المُتنوعة. كما أنّها تصبح (خير جليس) للطفل، ولصيقةً به، سواء في المنزل أم المدرسة أم السفر. ويقتنيها كلّ شهر، ويتتبع حلقات قصصها المرسومة بشوقٍ وشغفٍ كبيرين، ويساهم في إعدادها باقتراحاته وكتاباته. وباختصارٍ، ليست منتوجًا عابرًا، نغُضُّ الطّرف عمّا يُقدمُه!

من ثمّة، تتحمّلُ الكتابة مسئوليةً جسيمة في بناء شخصية الطفل روحيًا وثقافيًا ووطنيًا، حتى يصبح عنصرًا فاعلًا في مُجتمعه..!

النزعة التراثية في الكتابة للطفل

تأتي النزعة التراثية في العمل الإبداعي، لتشيّد أرضية صلبة ذات هُويّة وطنية تصدُّ وتحدُّ من الهجمة الفكرية الخارجية. فالفكر الغربي اللاغي للشخصية العربية، لا يتوانى في تحييد ثقافتنا وتاريخنا النضالي، برؤيته الثنائية للعالم: فضاء غربي، قائم على التاريخ الحي والسوسيولوچيا (علم الاجتماع الذي يدرس الظواهر الاجتماعية الإنسانية) وفضاء عربي، قائم على نسيج ثقافي سكوني، يشكل موضوعة للأنثروبولوچيا (علم يدرس الإنسان وسلوكه وأعماله؛ أي طبيعيًا واجتماعيًا وحضاريًا).

السؤال الذي يُثار في هذا الصدد:

ـ هل تمكنّا من البعد الأنطولوچي (علم الوجود، يدرس الأشياء بذاتها لا بأشكالها) في سبر الرّحم التراثي العربي، فنستلهمه هُويّة وطنيّة لأدب وثقافة الطفل؟

إنها لحقيقة ماثلة – حين نقول الطفل – أن من اليسير تشذيب (شتلة) على تشذيب (شجرة)!.. فالصغار يتشربون القيم والمبادئ الوطنية، والمُكوّنات الذاتية، بطريقةٍ أيسر من الكبار!

لا نعني بالرصيد التراثي، ذلك الطلاء الجمالي، الذي نتوسل به في كتابتنا لـ (الكبير) قصة، شعرًا، رواية، مسرحية.. أو تلك الصّرعة العاطفية، الجانحة لكل ما هو عربي!.. بل نعني ذلك التراث الوطني الثريّ، الذي يُعدُّ لبنة أساسية في تشييد الثقافة (الطّفليّة) والوعي (الصغير) بالكينونة الوطنية. ونقصد – كذلك – التاريخ النضالي المضيء، الذي لو كنّا نستلهمه في ثقافة – أدب الطفل، لجنّبنا صغارنا الموجة التغريبية الهادفة إلى قطع الجذور الثقافية العربية لدى الناشئة.

حقيقة أن كتبنا الدراسية، والوسائل الإعلامية، من مقروءة ومسموعة ومرئية، لم تنفصل بتاتًا عن تراثنا، ثقافتنا، حضارتنا.. لكنها لم تختر من (الذي مضى) إلا العناصر الكسيحة، لترسيخ القيم المهترئة. بذلك أحدثت قطيعة مع العناصر الحية، كابن رُشد الذي أثر في الفكر الغربي بنزعته العقلانية.

إن المكونات الثقافية لكل بلد، لا تُصدّر ولا تُستورد، بالشكل الفظيع الذي نلمسه – حاليًا–

في العالم العربي، بل تتجذَّر عميقًا، وتتأصل فكرًا في التقليد الإبداعي الوطني، الذي يرنو إلى الفاعلية بغنى إرثه الثقافي.

لا ينبغي أن تُفسر هذه الرؤية، بكوننا ندعو إلى ذات عربية منكفئة منغلقة، تنظر إلى الماضي– فقط – وتدير ظهرها للحاضر، أو إلى فكر يكفي نفسه بنفسه، بل ندعو – في اللحظة نفسها – إلى التجديد العقلاني للفكر العربي، والتفتُّح على ثقافة الآخر. ولا ندعو إلى (التراث النقلي) الذي سيّدته العناصر التقليدية في أدبيات الطفل، ولقنته لصغيرنا في المؤسسات التعليمية والإعلامية، ذلك التراث المليء بالغيبي، التواكلي، المثالي في الفكر.. بل ندعو إلى (التراث العقلي) الذي لا يُوثّن الثقافة، ولا يقبل طروحاتها كمُسلّمات وبداهات، ولا يُصنّم الفكر.

من كل هذا، نعتقد أن تراثنا أو تراث الغير، ليس خصوصيًا أو إقليميًا ضيقًا يقتصر علينا دون الآخر، أو ينحصر في الغير، ولقد قدمنا في الكتابة السابقة ما يكفي من أمثلة في التفاعل الحضاري بين العالمين: العربي والغربي، لا نرى داعيًا لإعادته!

ما أيسر أن ننقل، لكن ما أعسر أن نجدد، نبتكر، نبدع، ننهل من تراثنا إشراقات ونبضات حقيقية، ونمتح من الفكر والثقافة الغربيين أبعادًا إنسانية عالمية، نلحمها برؤيتنا الفكرية والثقافية في الظرفية الصعبة الراهنة، التي نزعت منّا إنسانيتنا.

إن العمل الإبداعي يرتكز على أساسين:

- موضوعي، نعني به العصر الحاضر، أي نعني الفكر الحداثي، إذ كيف نبدع إذا لم نسبُر عصرنا الحاضر؟!
- وذاتي، نعني به تكوين الأنا، الوعي بالذات، الوعي بأعماق التاريخ، الوعي بمُكوّنات الشخصية.

وحينما ننفر من (الهجمة الفكرية الخارجية) فلأن كتاباتنا منذ مائتي سنة، وهي تنقل الفكر الآخر، تترجمه، تقتبسه، تمتحه بشراهة، وهذا عنصر خطير، إذا تمادينا فيه سيشلُّ ثقافتنا، يعطل فكرنا، يُسقطنا في شركه، يُفقدنا ذاتنا. فهل سنظل (تلاميذ) نحتذي فكرًا وثقافة يتطوران بسرعة، نلهث خلفهما دون أن نصل إلى نتيجة، أم ندرك أن التاريخ يتغير، إذ كنّا (معلمين أكفاء) من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر؟!.. إن التلاميذ آنذاك، ترجموا علومنا وآدابنا إلى اللاتينية والعبرية، وأصبحوا معلمين يردون لنا بضاعتنا!.. فكيف ننسى بجرّة قلمٍ أنّ علومًا واختراعاتٍ وآدابًا، كانت بدايتُها في العصر العباسي، ومنها علمُ الفلك، والطب والجراحة

والصيدلة والبيطرة والهندسة والزراعة والكيمياء والفيزياء والآلات كالساعة والمنظار؟!.. وكيف نغفل عن أول جامعة في العالم وهي القرويين، التي درس فيها الأمير سيلڤستر الثاني، ونقل منها الرياضيات إلى أوروبا؟!.. تقول المُستشرقة زيغريد هونكه في «شمس العرب تسطع على الغرب»: «عندما كانت في بلاد الأندلس المئات من المكتبات، تضم ملايين الكتب والمُجلّدات، فإن ملك فرنسا كان أمّيًا لا يعرف القراءة والكتابة، وكانت شوارع المدن الأندلسية مضاءةً بالقناديل، بينما عواصم أوروبا يعُمُّها الظلامُ ليلاً»!.. وهل أتاكم خبر القنصل الفرنسي في عهد المولى زيدان السعدي، الذي نقل خُلسةً إلى إسبانيا أربعة آلاف مخطوطٍ علميٍّ من مكتبة الصّفّارين بفاس، كي تكون الحجر الأساس لمكتبة الإسكوريال الخالية على عروشها آنذاك؟.. نخلص إلى أن الكتابة عامة، وللطفل خاصة، ينبغي أن تحبل بالقيم الإيجابية: الوطنية، التربوية، الاجتماعية، الثقافية، السلوكية، الإنسانية. ولأن طفل الحاضر سيواصل النضال في الغد، ويتحمل مسئولية الوجود والبقاء، فإن علينا – كُتابًا ومُربّين – أن نبذر في ذاتيته الغضّة هذه القيم، من خلل تراثه المكتوب والمنطوق، بكل ما في هذا التراث من قيم إيجابية ومواقف بطولية، نضالية، تشحذ تجربته الحياتية، وتحمي شخصيته من الذوبان في الثقافة التغريبية.